صراع الهوية وإشكالية الأنا والآخر في رواية " منافسة في باريس " لنهاد رضا .

عبد القادر العربي / أستاذ محاضر " أ"

جامعة محمد بوضياف / المسيلة

الملخص :

لقد تجاوزت الرواية العربية التي أصبحت ديوان العرب اليوم لغة الهيمنة والاستعلاء ، التي تعد مسؤولة عن فرض أحكام مسبقة تشوه صورة " الأنا " مثلما تشوه " الآخر " خصوصا حين حاولت التخلص من أحادية اللغة ، وبدأت تستخدم تقنية تعدد الأصوات " اللغات ، وجهات النظر المختلفة " التي تفسح المجال لممارسة التعددية في مواجهة " الأنا " فتذكر إيجابياتها وسلبياتها ، أي تمارس النقد الذاتي وبذلك تسهم في تعزيز ثقافة الانفتاح حين تستخدم الرؤى المتعددة في تقديم الأنا والآخر ، فتصبح الرواية إحدى آليات المعرفة الإنسانية ، ترصد تفاعلاتها وتزود المتلقي بالوعي الذاتي الغيري كما تنعش قيم الجمال في نفسه ، مما يسهم في رسم صورة متوازنة للأنا والآخر ، فينمو فكر تعددي ، لا يضع من يخافنا الرأي أو العقيدة أو العرق في قالب واحد بتنوع إنسانيته ، ويمحو تنوع أفراده ليطابق صورة مسبقة عنه ، وبذلك يتم التخلص من الإرهاب الفكري الذي بات يحاصرنا اليوم ، فقد استطاعت رواية " منافسة في باريس " أن تقربنا من نبض الواقع وحيويته من دون أن نعيش آليته فابتعدت بنا عن متاهات التنظير بفضل امتلاكها إمكانات جمالية حملت لنا متعة المغامرة في عوالم إنسانية متنوعة وفي أسلوب شائق ، وصورت لنا الرجل الغربي وكيفية نظرته إلى الشرقي عموما والمسلم خصوصا ، وفي ذهنه أفكارا مسبقة عن هذا الشرقي الذي علقت به جميع آفات الدنيا الأخلاقية ، إضافة لخيانة الإنسان العربي لأخيه وإفشاء أسراره للآخر .

الكلمات المفتاحية :

الأنا ، الآخر ، متعدد اللغات ، متعدد الأصوات ، الأحادية اللغوية .

Summary :

The Arabic novel became a record for Arabs that went beyond language of the upmost and the eloquent that is counted for applying judgement on the ego as well as the other especially when trying to get rid of the language singularity and started to use more polyphony in addition to having different opinions for applying the polyglossic way when dealing with the ego , this also accounts for both the

negative and positive views on it moreover it practices the self-criticism for more open thoughts and opinions about it using the opinions as a basis to present the ego and the other so as a result the novel becomes a mean to achieve knowledge about human beings thus giving the reader an idea about the self=apprehension and helps to enriche the aesthetical value within him as well as giving balance between the go and the other .

Keywords : ego – other- polyglossic -polyphony- language singularity

مقدمة :

الرواية من أكثر الفنون قدرة على تجسيد إشكالية الأنا والآخر إذ تتيح الفرصة لصوت " الأنا " للتعبير عما يضطرم في الأعماق من مخاوف وآلام وأفكار ، فتنطلق في نقد الذات والآخر معا ، وإن كان هذا النقد يمارسه عادة المثقف الغربي أكثر من العربي لهذا يشكّل أحد أعمدة النهضة الغربية ، حتى إنّ تطور الفكر الغربي مدين للنقد الذاتي الذي لا يتوقف المثقف " المفكر ، الأديب ..." عن ممارسته ، وكي لا يبدو هذا القول نوعا من جلد الذات يحسن أن نشير إلى أن النظرة الضيقة يعانيها كل إنسان جاهل في أي زمان ومكان ، فمن يفتقد الثقافة يفتقد سعة الصدر ؛ أي روح التسامح واحترام الرأي المختلف ،وبما أنّ الرواية تعد من أقدر الفنون على تقديم تفاصيل الحياة بكل حقائقها وأوهامها ، مما يتيح لنا دراسة إشكالية العلاقة بين " الأنا " و" الآخر " فيها ، إذ تستطيع أن تفتح أمام المتلقي طريق فهم الذات والآخر معا ، فهي قادرة على نبش أعماقنا وتجسيد أفكارنا ومشاعرنا وأحلامنا ، وطرح ما يعترضنا من إشكالات تعانيها " الأنا " في مواجهة الآخر كل ذلك يفسح المجال لتقديم اضطراب رؤيتنا وقلقنا وإحباطنا ، فيعكس تطور نظرتنا إلى ذواتنا والآخر مثلما يعكس أوهامنا وأفكارنا المسبقة التي كثيرا ما نجد أنفسنا أسرى لها ، إذ تشكل أسس تصرفنا وعلاقاتنا مع الآخر ، إذا يفسح اتساع الفضاء الروائي المجال أمامنا كي نتأمل هواجسنا ووجهات النظر المتعددة ، التي نواجهها في الحياة وتثير أسئلة حول " الأنا " وأزمات تعترض تشكيل الهوية ، التي من بينها إشكالية العلاقة مع الآخر ، فتبرز التشوّه الذي يحاصرنا مثلما يحاصر الآخر ، وبذلك تتغلغل الرواية في الأعماق لتناقش الإكراهات التي تعشش في اللاوعي ، فتقتحم المخبوء في تصور الذات والآخر ، وبذلك نتعرف على تلك القيود والأوهام التي قد تحاصر إنسانية الإنسان وتسقطها في ظلمتها .

مفهوم الهوية :

حين يحس المرء بأن ثمة ما يهدد وجوده إلى تأكيد ذاته باحثا عن شيء أصيل كامن في أعماقه يركن إليه كي يحسّ بالثقة والإيمان والقوة لمواجهة الخطر ، وبذلك تتشكل الهوية في أدغال الذات حيث تتجسد عبر انتماءات ومكونات تتعلق بالجنس والعمر والطبقة الاجتماعية والموروث الثقافي ، الذي يشكل ركيزة أساسية فيها مما يجعل الآخر المعتدي يهتم بالقضاء عليها أي على كل الثوابت التي تشكل الروح والوعي ، حينئذ يسهل القضاء على الخصوصية لذلك اعتنت بها الشعوب المتحررة حديثا كما بين ذلك الدكتور " زكي نجيب محمود "إذ إنّ الهوية الخاصة " لا تصان إلا بأن يتمسك الشعب بثقافته التي ورثها عن أسلافه أي في العقيدة وفي اللغة وفي الفن وفي الأدب وفي كثير من النظم الاجتماعية " " [1] "

إن الهوية هي ما يصمد من الإنسان عبر الزمن إذ تلازمه مكونة شخصيته ومحددة معالمه بشكل ثابت مما يمنح إبداعه طابعا خاصا ، فلا يكون مسخا للآخرين لهذا تعد شرطا ملازما للفرد يؤثر في الجماعة ويمنحها سمة خاصة بها ، لذا لا نستطيع فصل " الأنا " عن " النحن " لأنّ الهوية تحقق شعورا غريزيا بالانتماء إلى الجماعة والتماهي بها ، فتتبادل معها الاعتراف وبذلك لا يمكن اختزالها في تعريف صاف ويسير .

الهوية بين مفهومي الانغلاق والانفتاح :

إنّ المثقف لا يمكن أن يرى في الهوية تقوقعا على الذات كما أنه لا يمكن أن يرفض الانفتاح على الآخر من أجل الحفاظ على مكوناتها لأنّ ذلك يعني الجمود والضعف والانحطاط ، مما يناقض مفهوم الثقافة الذي يقوم على التطور والاعتراف بكل معرفة جديدة لذلك بدأ المثقف سواء كان مفكرا أم روائيا والذي من المفروض أن يكون مفكرا ، يرفض قمع إرادة التغيير وعرقلة أي محاولة لاختراق الحواجز العقائدية والعرقية التي تقيمها " الأنا " " لأنّ الذات الخائفة من الامحاء تزداد تقوقعا عل ذاتها ورفضا للآخر، لكن المثقف الحقيقي يتجاوز هذه الرؤية المغلقة ويبتعد عن التعامل مع مكونات هويته القومية بصفتها جوهرا ما ورائيا أو عنصرا نقيا أو بنية ثابتة أو حقيقة متعالية أو شعارا مقدسا ، وبذلك يخرجها من إطارها الجامد وينظر إليها بصفتها شرطا يمكن تغييره ، أو معطى ينبغي صنعه وتحويله لهذا يعدّ أكثر الناس وعيا بالهوية وقدرة على تجاوز المألوف والابتكار ، فالمهم ألا يحول تعلقه بما يشكل رموزه وهويته من دون ازدهاره وتألقه ومن دون تفرّده وإبداعه ، فالخصوصية فرادة تسمح للإنسان بأن يكون عالميا "" [2]"

من هنا نجد الروائي يرى هويته في إطار من التعددية كما قال بذلك الروائي " أمين معلوف " حين سئل عن هويته هل هي فرنسية أم لبنانية ؟ أجاب "هذا وذاك " ليس بمعنى أن نصفه فرنسي ونصفه لبناني ، " لأن الهوية لا تتجزأ أبدا إلى أنصاف أو أ ثلاث بل هي هوية واحدة تتشكل لدى كل شخص من مجموعة من العناصر لا تقتصر بالطبع على تلك المدونة في السجلات الرسمية ، وهناك بالتأكيد لدى الأغلبية العظمى من الناس ، الانتماء إلى تقليد ديني وإلى جنسية وأحيانا جنسيتين وإلى مجموعة إثنية أو لغوية وإلى أكثر اتساعا أو أقل وإلى مهنة ومؤسسة ووسط اجتماعي " " [3] " .

إنّ هذه العناصر المكونة لهوية الشخصية أشبه بالمورثات لكنها ليست فطرية بل هي أقرب إلى المفهوم الاجتماعي ، لذلك حين يتهدد خطر خارجي أحد عناصر الهوية " الدين ، اللغة ...." فإنها تختزل في هذا العنصر لكن في الأحوال العادية لا يمكن لجماعة أو فرد أن يكون حبيس هوية ذات بعد واحد ، فهي تتميز بطابعها المتقلب الذي يمكن أن يخضع لتأملات مختلفة واستخدامات عدة ، تتأثر بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي بزغت فيها مثلما تتأثر بتجاربها مع الآخر سواء كانت لقاء أم صراعا .

الهوية بين الأنا وإشكالية الآخر :

إن الآخر هو المختلف في الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي وتتضح إشكالية الأنا " العربية ، الإسلامية " والآخر الغربي بسبب سوء التفاهم والمواجهة السياسية

والعسكرية ، أما علاقة الذات به من الناحية الثقافية والاقتصادية والتقنية فقد بدت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها ، وهكذا لا تتضح ملامح الهوية من دون لقاء مع الآخر إذ إن العزلة عنه تجعلها ذات بعد واحد فيسرع إليها العطب والجمود ، في حين نجد اللقاء معه يمنحها أبعادا مركبة تنفتح على أكثر من عالم ولكن هل تشكلت هوية " الأنا " في الخطاب العربي عبر لقاء الآخر أم عبر مواجهته ؟ أم الاثنين معا ؟ أليس هذا الآخر هو الغرب المتفوق المسيطر ؟ ترى هل نستطيع أن ننأى بانفسنا عنه ؟ ألا نعيش أجواء حداثته فنقطف ثمارها على الرغم من توتر علاقاتنا معه ؟ إنّ هذه الإشكالية هي أحد وجوه أزمتنا الذاتية التي لا حل لها سوى تجاوز النظرة الضيقة التي ترى الحداثة الغربية من خلال ثنائية الأنا والآخر المعتدي ، فعلينا أن نمارس هويتنا واختلافنا بشكل نعيد فيه ترتيب العلاقة مع ذواتنا ومع الآخر ، أي أن نغير موقفنا منهما معا فإذا كنا ننعم بإنجازات الغرب منذ زمن وندخل بفضله اليوم عالم الفضاء بعد أن سيطر عليه ، لهذا نجد أنفسنا ملزمين بالتعامل معه على هذا الأساس ، من دون أن يعني ذلك تقليده والخضوع له ، وهناك من يدعو إلى نفي الغرب من حياتنا ويرى الهوية العربية نقيضا للآخر ، وبذلك يبدو خائفا متحصنا بها خاصة حين يواجهه خطر خارجي فتضيق نظرته ويلجأ دفاعا عن هويته إلى وضع الآخر في صورة نمطية فغالبا ما تصب " الأنا " العربية الآخر الغربي سواء كان منتميا إلى الحكومة أم للشعب في قالب العدو الذي يعمل على مسخ هوية الذات واقتلاع خصوصيتها ، إنّ مثل هذه الصورة النمطية لم تتكون بتأثير العدوان الذي تعرضت له " الأنا " اليوم بل بتأثير حروب الماضي أيضا مما أنتج سوء تفاهم يكاد يكون موروثا لذلك مازالت آثاره تنغص العلاقة بيننا وبين الآخر ، لقد شوهت صورة " الأنا " و" الآخر " بتأثير الحروب ووسائل الإعلام التي يتحكم في أغلبها الآخر الصهيوني " بفضل المال الذي يستثمره في هذا المجال " لهذا من الطبيعي أن تكثر فيه الصور النمطية المشوهة للأنا العربية والمسلمة .

الهوية والحرية :

لا تعدو أن تكون الهوية مجرد إحساس بالتمايز أو التشارك مع الآخرين في القيم ذاتها ، كما أنها نشاط فكري يقوم على الوعي بمكوناتها ويظهر ذلك عند الحاجة إلى التفكير فيها لا الإحساس بها فقط ، والسبب أنّ الإحساس بالهوية كثيرا ما يرتبط بمواقف عاطفية ، مع العلم أنّ العاطفة جزء أساسي في توطيد علاقة الإنسان بهويته لكنها لا تؤدي إلى الوعي بها في جوهرها ، إذ تغدو مجرد مجموعة من الانفعالات والعواطف التي تضطرم كما تخبو وتضعف ، وإذا طغت على كيان الإنسان لعبت دورا سلبيا في علاقته بالإرث الذي ينتمي إليه ، أو في علاقته بالآخرين فتكون مواقفه متعصبة وقد تصل إلى إقصاء كل من يقف خارج هويته ، إذا ثمة حاجة إلى مساءلة الهوية ضمن ظرفيتها السوسيو – تاريخية وفي علاقاتها المتشابكة مع الظروف السياسية ، ومع مكونات ثقافية مختلفة ، بمعنى أنّ على الهوية أن تغدو موضوعا للتفكير والمساءلة حتى نتفادى ما يمكن تسميته ب" الانغلاق الهوياتي " ، لكن أين تكمن صعوبة التفكير في الهوية ؟ يرى المفكر التونسي فتحي المسكيني " بضرورة تحييد الهوية عن فكرة الأصول أو الانتماء إلى وجود سابق قد نسميه تراثا ، أو جذرا أو أصلا ، وقد يتخذ شكل انتماء إلى وطن أو إلى ديانة أو إلى حركة اجتماعية ، ذلك أنّ فكرة الأصل تتضمن سيادة العاطفة على حساب العقل ، وهو ما يحد من حرية الأفراد في فهمهم لهوياتهم

ولوجودهم ، بل ويؤثر على قدرتهم في صناعة هوياتهم بأنفسهم ، تحدث المسكيني عن مفهوم " السطح الهووي " والذي يقصد به مجموع الانفعالات القومية والدينية التي تؤثر على فهم الإنسان وتصوره لهويته ، وفي نظره أنّ الأصول لا تدعو إلى الراحة وكل أصل هو بالضرورة موقف رومانسي لكن بلا قدرة على الحلم ، الحلم بما هو شرطية الحرية التي لا يمكن لها أن تتزامن أو تتجاور مع فكرة الأصل ولذا يصعب والاستنتاج للمسكيني الجمع بين الأصالة والحرية معا يقول " لا يمكن أن نتحرر ونحب في آن " " [4] " .

إنّ أي تأسيس للحرية على فكرة الحنين إلى وطن أو أي شكل من أشكال الانتماء هو نفي للحرية ذاتها ، وشكل من أشكال الإخضاع بهذا المعنى ، فإنّ الهوية أسبق من الإنسان وهو لا يختارها بل الهوية هي التي تختاره " نحن نعلم أنّ الهوية ليست مجرد شعور خاص بهذا الشخص أو ذاك بل هي جهاز انتماء أو لا تكون ومثل كل جهاز ، لا يمكن لأي هوية أن تعمل في أفق روحي ما ، إذا لم تكن تملك شكلا معينا من الإلزام وفنا معينا من الانضباط وليس هناك هوية غير ملزمة بل كل هوية هي لا تعدو أن تكون تاريخها الخاص ، وقد تحوّل إلى جسد من العلامات المستقلة ، نحن ننتمي سلفا إلى أنفسنا نعني إلى جهاز أنفسنا كما ورثناه دون أي تجربة شخصية " " [5]" .

التفكير في الهوية هو الذي يحرر الذات من سلطتها العاطفية لأنه يضمن القدرة على النظر إليها كبنية غير مكتملة ، بل كجهاز في طور البناء والتشكل لا يلزم بقدر ما يلتزم هو الآخر بشروط العصر وتحولاته .

إذ لا تقتصر الهوية على الأفراد بل هي أيضا جهز اجتماعي وثقافي يعني المجتمع ، فلكل مجتمع هويته التي تمثل أساسا من أساساتها الوجودية ، وهذا السبب فقد أولت الجماعات البشرية أهمية كبرى لهوياتها الجمعية من خلال بناء سرديات تؤرخ لها سواء في التاريخ أم في المخيال ، ولذا فإنّ أساطير النشأة مثلا هي بمثابة تاريخ الهوية الجمعية ، ومن داخل تلك السرديات أو الحكايات ترسم حدود تلك الهويات وتخضعها لأشكال رمزية أو جمالية أو تاريخية ، وتلعب هذه السرديات دورا هاما في ترسيخ الهوية وضمان استمراريتها الزمنية عبر الأجيال ، وأي مساس بصدقيتها وهو تشكيك في الهوية ذاتها ، لقد ساهمت الأساطير والملاحم والروايات والفلسفة في صناعة سردية غربية عن نشأة الغرب وأصوله ومصادر وجوده وقوته ، كما أنها لم تنشأ هذه الهوية إلا من خلال افتراض سردية مناقضة لها ، حيث إنّ أساس هذه السردية هو إدراك العالم وفق منطق ثنائي ، ويجد البعض في هذه التقابلات الوجه الخلاق الذي ساهم في تطور الهوية الغربية ، لا تخرج السرديات الغربية الحديثة عن هذه الثنائية سواء التي ترسخت في الأدبيات الكولونيالية أو التي طرحت منظورا معاصرا عن مفهوم " الآخر العدو " البربري أو المتوحش أو البدائي ، وقد كان الشرق هو تلك الصورة المناقضة للغرب ، وإذا تأملنا في الروايات الكولونيالية نكتشف أن السرد لا يتوقف عند حدود بناء هوية البطل الغربي بمواصفات المدافع عن قيم الحضارة والخير والقوة ، لكنه يبني أيضا سردية الآخر غير الغربي ليغدو صورة للشر المطلق ، ولذا صار " الشرق " في الخطاب الاستشراقي الأوربي " ضرورة يستحيل تفاديها أو تجاهلها في الخطاب الأسطوري الغربي ،

الذي أقبل عليها لكي يرتقي ببنياته مكتسبا المصداقية مما يسمح له الاستلاء على النفوس والاستحواذ على العقول ، وفي الواقع لا وجود لغرب من دون شرق " "[6] " .

" في رواية " صحراء التتر " للروائي الايطالي " دينو بوتزاتي " نجد أن الغرب لا معنى له دون وجود " العدو / الآخر " الذي يأتي من بعيد مدججا بالحقد والكراهية ، ومتعطشا إلى إلحاق الأذى بما هو غربي ، ونكتشف من خلال شخصية الملازم " جيوفاني دروغو " القابع وراء حصن " باستياني " الواقع على تخوم صحراء شاسعة أنّ هوية الإنسان الغربي تقوم على ذلك الترقب لقدوم البرابرة ؛ أي على الإحساس بأنّ الهوية الغربية لا تكتمل إلا بذلك الآخر الذي هو صورته المناقضة ، ويظل البطل – على نحو عبثي – ينتظر قدوم هذا العدو ، ويكتشف في الأخير أنه مجرد صورة متخيلة ، وفي رواية أخرى للجنوب افريقي " " ج،م، كوتزي " " في انتظار البرابرة " تصور هي الأخرى قدرة الإمبراطورية الغربية على اختلاق الأعداء " "[7]"

لقد اشتغلت الرواية الغربية على صناعة سرديات الهوية الغربية الحديثة على غرار الروايات الكولونيالية التي رسخت قيم الإنسان الأبيض ، " إذ نجد في صورة " روبنسون كروزو" وجزيرته المهجورة وعبده الأسود " فرايدي " تمثيلا رمزيا قويا لعقيدة الهوية الأوربية "،" [8] " .

لقد طرح الفيلسوف الفرنسي " بول ريكور 1913 ، 2005 " مفهوما مهما هو " الهوية السردية " ويعني بهذا المصطلح تلك الهوية التي يكتسبها الشخص من خلال وساطة " الوظيفة السردية " من خلال بناء نوع من الهوية الديناميكية المتحركة الموجودة في الحبكة التي تخلق هوية الشخصية في الرواية ، لا نتعرف على هوية الشخصية إلا من خلال السرد ؛ أي من خلال " انعطاف العلامات الثقافية بجميع أنواعها ، التي يتم إنتاجها استنادا إلى وساطات رمزية " " [9] " .

استطاعت الرواية الغربية في القرن العشرين أن تعكس النظرة المرتبكة للإنسان المعاصر إزاء هويته ، وعلاقته بالآخرين وبالعالم ، ويرجع الأمر إلى الأحداث التاريخية الكبرى التي أطاحت بأحلام المجتمع اليوتوبي القائم على الأخلاق ، واحترام قيم الإنسان والتعايش مع الآخرين في حين ما حدث هو انهيار صورة الإنسان وعبرت الرواية الغربية عن انهيار المعالم والمرجعيات من خلال شخصيات دخلت في حالة من الضياع الوجودي ، وهو الموضوع الذي استثمره " كولن ولسون " لكتابة " اللامنتمي " ، حيث قام بدراسة على أهم الروايات الغربية التي صدرت في القرن العشرين ، وتوصل إلى أنّ الصورة المشتركة بينها هي صورة شخصية " اللامنتمي " ، وما يميز اللامنتمي هو علاقته الاغترابية بالهوية ، " لا يعترف اللامنتمي من هو لقد وجد "أنا " إلا أنها ليس " أنا " حقيقية ، أما هدفه الرئيسي فهو أن يجد طريقا للعودة إلى نفسه " " [10] " .

وما يعانيه أبطال هذه الروايات من أزمات وجودية هو وجه من وجوه الإحساس بالاغتراب عن هوياتهم الحقيقية ، ويعكس نموذج اللامنتمي تجربة البحث عن الذات أو عن طريق تعيده إلى ذاته ، وهنا تبرز وظيفة السرد في قدرته على اكتشاف تلك المسالك الخفية " اللاوعي " المفضية إلى حقيقة الذات .

ثمة مكون آخر للهوية الغربية بالإضافة إلى التقسيم العنصري هو فكرة العدو ، ويبدو أن الشرق هو أكثر الأعداء حضورا في وعي الغرب في الماضي والحاضر ، لهذا مسخت صورته إلى مجموعة من الثوابت التي تناقض الثقافة الحديثة ، مما يعلي شأن الأنا الغربية على حساب الآخر " الشرقي " الذي لا يملك سوى ثوب التهديد والإرهاب ، فهو ضئيل المواهب قياسا للفاتح الخارجي المتحضر ، الذي لم يقدم كما يرى " إدوارد سعيد " سوى البديلين التاليين " فلتخدم أو فلتدمّر " لهذا كانت أسوأ هبات الإمبريالية في نظره ، أنها دفعت الناس إلى الاعتقاد بأنهم بيض أو سود أو غربيون أو شرقيون فقط ، ولكن كما أن البشر يصنعون تاريخهم الخاص فإنهم يصنعون ثقافتهم وهوياتهم العرقية ، وليس بوسع أحد أن ينكر الاستمرار الملح للتراث العريق ، واللغات القومية والجغرافيات الثقافية لكن الخوف يتجلى حين يحس المرء أن هناك ما يهدده بالانفصال عن موروثه ، فيبالغ في تعصبه له كأن ذلك يتهدد كل ما تدور عليه حياته ، لذلك يرى " إدوارد سعيد " " أنّ الأفضل ألاّ نفكر في أنفسنا فقط ، بل أيضا في الآخرين فنتعاطف معهم ونبتعد عن تصنيفهم وفق تراتبيات ، مما يعني أن الأهم ألا نكرر باستمرار أن ثقافتنا أو بلادنا هي الأولى " "[11]" .

لقد وقع في آفة التعميم كثير من الباحثين بغض النظر عن انتمائهم الديني والعرقي والفكري والجنسي ، حين درسوا الآخر فسقطوا في مزالق فكرية ، تتبنى فكرا إقصائيا يعلي من شأن الذات ويحتقر الآخر عندئذ تحاصرهم جدران التعصب ، التي تنفي " الأنا " قدر ما تنفي " الآخر " ، ونلاحظ أنّ النظرة الغربية الضيقة للشرقي بدأت تخفّ حدّتها في عصر العولمة ، إذ باتت وسائل المعرفة متاحة للجميع بفضل سهولة الاتصال بين أرجاء العالم ، حتى وجدنا اليوم كثيرا من الشباب الغربي يغامر بالسفر إلى الشرق ليعيش ثقافته وتفاصيل حياته اليومية ، بعيدا عن النظرة الوهمية الغرائبية التي شدت آباءه وأجداده ، فيتعرف عن كثب على بعض حقائقه ، بعيدا عن أوهام تربى عليها ، مما يسهم في إزالة سوء التفاهم وثقافة الكراهية بين الشرق والغرب ، كما فعلت " ماري روز " في رواية " سهرة تنكرية للموتى " لغادة السمان ، إننا نستطيع حل إشكالية " الأنا " و " الآخر " حين نرتقي بإنسانية الإنسان ، فنتبنى قيما حضارية أنجزتها الأمم جميعا مما يؤسس لمد جسور التفاهم بين البشر بعيدا عن الهويات القاتلة ، إذ يحدث الانفتاح على العالم الخارجي حيث يمكن أن نلتقي " الآخر " مثلما يحدث الانفتاح على العالم الداخلي ل " الأنا " بفضل قيم إنسانية خالدة مثل الخير والحب والعدالة ، والتي تنبض في كل قلب فتزيل كل الشوائب التي تمزق العلاقات الإنسانية وتنشر الكراهية ، لكن السؤال الذي يطرح ذاته لماذا يمارس بعض الناس هذه القيم فيعيشون الانفتاح والحب في حياتهم ؟ ولماذا ينأى بعضهم عنها ويعيش التعصب والكراهية للآخر ؟ أليس الجهل بالآخر أبرز أسباب رفضه ؟ ألا يعد صبه في قالب سلبي نمطي تعشش فيه الأفكار المسبقة والوهمية من أبرز كراهية الآخر ؟ أليس الإنسان مسؤولا عن الارتقاء بروحه حين يعيش هذه القيم ؟ مثلما هو المسؤول عن التردي حين يعزل روحه عنها ؟ ألا يدمر الابتعاد عن هذه القيم الفرد والمجتمع معا ؟ أليس الأدب الكبير حاميا لتلك القيم التي تجمع الإنسان بأخيه الإنسان ؟ ألا يؤدي افتقاد النقد الذاتي لدى المثقف العربي إلى العيش في مستنقع التخلف والكراهية ؟ إننا بذلك لا نستطيع فصل الأسباب المعرفية عن الإنسانية ، إذ إنّ الانفتاح

المعرفي يفضي إلى انفتاح إنساني ، لهذا كان الجهل قرين التعصب والكراهية فحين يفقد العالم إنسانيته يسخّر معارفه للاستيلاء على مقدرات الآخر ونفيه ، أي يسخرها لدمار البشرية وكي نوقف مثل هذا الخلل لا بد من ممارسة النقد الذاتي عندئذ نستطيع تأسيس ثقافة الانفتاح عبر الوعي المعرفي والإنساني ، فلا نتسامح مع أنفسنا ونظلم الآخر بل نتحدث عن أخطائنا مثلما نتحدث عن أخطائه عندئذ نفسح المجال لانتعاش المشاعر الإنسانية الإيجابية ، التي تسهم في رسم صورة متوازنة للآخر ، مثلما نحاول رسمها لذواتنا مما يساعد في نمو فكر منفتح على التعددية ، لا يضع من يخالفنا الرأي أو العقيدة أو العرق في قالب واحد ينتوع إنسانيته ، ويمحو تنوع أفراده ليطابق صورة مسبقة عنه ، وبذلك لا يتم النظر إلى الآخر بصفته كائنا موحدا ضد الذات العربية ، إذ " ليس الغرب عالما مغلقا لا انقسام فيه ولا هو جبهة متراصة ضد الإسلام ، ثمة وعي نقدي مضاد للذات يبرز لدى العديد من المفكرين من " جاك دريدا " الذي انشغل بتفكيك المركزية الأوربية إلى " إدغار موران " الذي يعترف بتخلف الغرب على المستوى الخلقي وببدائية وعيه على الصعيد البيئي والكواكبي " " [12] " .

لقد أكد " جاك دريدا " على ضرورة احترام ثقافة الآخر ودراسة المهمشين والأقليات ، فقد لاحظ أن الفكر الغربي يقوم على الاهتمام بالمماثلة وإقصاء المختلف وكل ما يبتعد عن العقل ، وحين حفر في ظروف نشأة التمركز العقلي وطبيعته وجد أنّ الأمر قد تم بناء على تمركز آخر هو اللغة ، أي الصوت والكلام لذلك دعا إلى خطاب لا تمركز فيه يؤسس للغة تبتعد عن الانغلاق ، إذ بيّن لنا " إدوارد سعيد " أن ثمة فريقين من الباحثين : الأول منغلق على ذاته ، والثاني منفتح على الآخر ، يؤمن بالتعددية الثقافية أكثر أعضائه في أمريكا من السود والنساء والأمريكيين من أصل هندي ، لهذا رأى في الفريق الأول تهديدا بربريا للحضارة الغربية ، كما بين أنه قد تكون ظاهرة الانفتاح أكثر رسوخا في أوربا ، في حين تبدو أمريكا مازالت تعاني من تنازع عدة تيارات في هذا المجال ، إنّ المتأمل المحايد يلاحظ تميز الغربي عن " الأنا " الشرقية في كونه أكثر ممارسة للنقد الذاتي ، لذلك استطاع تطوير فكره النقدي ونظرته للمختلف ، إذ فضح رؤيته المركزية التي انطلق منها ، وأدت إلى انحراف نظرته لذاته وغيره ، مما نسج سوء تفاهم بينه وبين كل من يختلف عنه عرقيا أو دينيا أو فكريا ، من هنا يمكن القول إنّ النقد الذاتي الذي يمارسه المثقف الغربي أحد عوامل نهضته ، واتساع أفقه وتطوره ، ومثل هذا النقد لن يكون مؤثرا لو لم يعتمد على احترام التعددية الفكرية التي تشكل وعيه ، وإحدى دعائم حضارته فتم التأسيس لفكر متسامح يتسم به المبدع الغربي ، وعلى نقيض ذلك بدا خطاب المثقف العربي المدافع عن هويته وتحديث مجتمعه عقيما كما يقول علي حرب ، فانتج كل ما هو سالب للقوة معطل للنشاط الخلاق وذلك بسبب افتقاده للنقد الذاتي ، لكننا وجدنا استثناء لذلك لدى بعض المثقفين العرب ، فمثلا " منذر الكيلاني " يحمّل الشرقيين مسؤولية المشاركة في تشويه صورتهم حين يعيشون في قالب جامد ، لا يسعون إلى تطويره بل يتواطؤون مع الآحر ويرضون بقولبتهم ، وحصارهم في جدران السلبية مما أدى إلى نشوء " هذا الضرب من اغتراب الهوية "" [13] " .

صراع الهوية بين الأنا والآخر في رواية " منافسة في باريس " لنهاد رضا :

نهاد رضا مؤلف رواية " منافسة في باريس " شاعر ومترجم بالدرجة الأولى له من المجموعات الشعرية أكثر من عشر مجموعات منها " ميلاد شاعر، شعر في لوحات، هكذا

حدثني القلب، الرعشة الأولى، موعدنا في القمر، ذابح الملهمات، هل يحبني أنا ؟ احتجاب الفارس الأخضر، أنا وأنت وقوس قزح، البعد اللامنظور، لإضافة إلى ملحمة طويلة بالفرنسية سماها " ملحمة العهد المعاصر " ، تتكون من سبعة أجزاء هي" إشراقات درويش مولوي، بيان الأزمنة الإنسانية، صعود الفرسان الجدد، نداء المدينة المفتوحة، ظلال الحكمة، حديقة الأنوار، رحلات الفكر "، أما في مجال الترجمة فقد نقل إلى العربية عددا كبيرا من الكتب؛ معظمها يدور في المجال الاقتصادي والسياسي، منها المواطن والدولة لروبير بيلو، تيارات الفكر الفلسفي لأندرييه كريسون، النظرية العامة في الاقتصاد لكينز، الإنسان المتمرد لألبير كامو، المشكلات الميتافيزيقية الكبرى لفرانسوا جريجوار، هيجل والهيجيلية لرينييه سيرو، الادخار والاستثمار لبيار وماري راديل، الصين بعد ثلاثين عاما، اقتصاديات البحر الأبيض المتوسط، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، لخوان فيرنيت، وهو كتاب مهم نقله عن الإسبانية، ويبدو أن تمكنه من بعض اللغات الأجنبية مع قرضه الشعر قد أتاح له فرصة كبيرة ليعبر عن رؤاه وتصوراته في روايته الوحيدة " منافسة في باريس " " [14] " .

حيث تبدو ثقافته العميقة الواعية بأحداث الواقع الاجتماعية والاقتصادية والحضارية مبثوثة عبر سطور الرواية التي اختار لها موضوعا حيويا مهما يتعلق بمصائر الشعوب ومستقبلها ، والعلاقة بين الحضارة الشرقية والعالم الغربي في العصر الحديث ، ويبدو أنّ اهتمامات الكاتب بالشعر والترجمة لم يتركا له مساحة زمنية ملائمة للكتابة الروائية ، فلم يكتب غير روايته الوحيدة التي نحن بصدد قراءتها والإبحار عبر صفحاتها ، وهي ظاهرة موجودة عند أكثر من أديب يطغى عليه جانبا من جوانب الفكر أو الخيال أو العاطفة ، نرى ذلك مثلا عند العقاد الذي لم يكتب غير " سارة " والرافعي الذي لم يكتب غير بعض القصص القصيرة ، ومحمد حسين هيكل الذي لم يكتب غير زينب ، وتظل الرواية الوحيدة لهؤلاء وغيرهم محط اهتمام النقاد والباحثين لأسباب شتى لا مجال للحديث عنها في هذه الصفحات المتاحة لنا ، وإن كنا سنقرأ " منافسة في باريس " لنتبين بعض الأسباب أو الملامح التي تنبئ عن اهتمامنا بها .

قضية عامة :

مع أنّ " منافسة في باريس " صدرت منذ فترة طويلة فإنّ موضوعها حي ومستمر ؛ لأنه يعالج قضية عامة تخص الشعوب والأمم في مراحل تطورها أو رغبتها في هذا التطور ، فتصطدم بالعقبات والمؤامرات الظاهرة والخفية ، وفي " منافسة في باريس " نجد دولة شرقية زال عنها الاحتلال الأجنبي قبل فترة من الزمان اسمها " أشمونيا " وتطمح هذه الدولة التي صارت مستقلة إلى بناء نفسها على الأسس الدولية المعروفة ، الحرية والديمقراطية والعدل والعلم والمساواة ، ولكن واقع هذه الدولة كما تصوره الرواية متناقضا لما تقوله أجهزة الدعاية فيها ، وخطب المسؤولين عنها وكلام الصحف التي تنطق باسمها ، فالفساد على أشده ليس قاصرا على أفراد بأعينهم بل يمتد ليشمل مؤسسات وطبقات والفوضى عامة ، وتكافؤ الفرص معدوم بين المواطنين والعلم مجرد لافتة لا تسمن ولا تغني من جوع ، وتكتلات المفسدين تقضي على الأمل في كل شيء وبالطبع لا أثر ولا وجود لتطبيق أي شعار من الشعارات الجميلة المرفوعة في كل مكان " بأشمونيا " وهي صورة مخالفة للحياة الإسلامية الحقيقية بصفة عامة ، تبرز الرواية في ثناياها دور الغرب في الاستفادة من هذه الأوضاع كي لا

تنهض " أشمونيا " أو تبني ذاتها ، فهناك شركة نسيج تمنح توكيلا لأحد مسؤولي " أشمونيا " فيتدخل مسؤول آخر ليحصل على توكيل لنفسه أيضا من الشركة ذاتها ، وتقع الشركة في مشكلة لأنّ ذلك سيعرض مصالحها للخطر ، ويحاول مديرها أن يحل المشكلة عن طريق قنصلية " أشمونيا " في باريس وهنا تتكشف ألوان الفساد الذي يعشش في " أشمونيا " من خلال موظفي القنصلية والعلاقات السائدة بينهم ، حيث تمتد صور الفساد في بلدهم إليهم وهم في قنصليتهم ، في الوقت ذاته تكشف الرواية أن الشركة الفرنسية قامت عن طريق بعض المسؤولين الفاسدين في " أشمونيا " بإحباط كل محاولات إقامة مصنع نسيج وطني في بلدهم ، لتظل معتمدة على الشركة الفرنسية ؛ أي تظل " أشمونيا " مستهلكة وتظل باريس منتجة ، ويمكن القياس على ذلك في أمور أخرى ومن ثم تظهر العلاقة بين الشرق والغرب التي تقوم على الاستغلال والاستفادة بالفساد والمفسدين المحليين ، زيادة على ذلك فإنّ الرواية تقدم لنا صورة الشرقي في ذهن الغربي وهي صورة خيالية تتركز في أنّ الشرق هو مغارة " علي بابا والأربعين حرامي " وأنّ رجالات الشرق من السذج والبلهاء الذين تنحصر اهتماماتهم في أمور شخصية ، لا ترقى إلى مستوى القضايا الإنسانية العامة ، وهم بصفة عامة بعيدين عن النضج العقلي والرقي الفكري والإحساس الإنساني ، فموضوع الرواية يبدو موضوعا فكريا يشد انتباه المتلقي إلى إعمال عقله وذهنه في القضايا التي طرحتها الرواية ، ولعل ذلك كان سببا من أسباب النبرة المرتفعة في السرد الروائي ، صحيح أن هناك جوانب أخرى عاطفية ووجدانية واجتماعية تفرض وجودها في ثنايا الرواية ولكن الجانب الفكري يظل أقواها وأكثرها حضورا بين السطور .

الخارطة الفنية والبناء الذهني الصارم :

يبني الكاتب روايته في عشرين فصلا تكاد تكون متساوية في عدد صفحاتها وسطورها بل حتى في عدد كلماتها ، مما ينبئ عن تصميم هندسي دقيق ؛ أقامه المؤلف وفق ذهنية صارمة بدءا من الفصل الأول حتى الفصل العشرين ، وفي كل فصل تمهيد لما يليه أو فكرة تقود إلى أخرى ، بحيث تتوالى الأحداث حتى تصل إلى نهايتها في إطار يعد ويفي بشروط التصميم الروائي التقليدي ، وفي الفصل الأول نرى رجل الأعمال الفرنسي "روجييه " وهو يحاول مقابلة قنصل " أشمونيا " في باريس ، ولكن الأخير يتهرب منه ، وفي الفصل الثاني يتعرف على بعض موظفي القنصلية ولكنهم لا يستطيعون حل مشكلته " التنافس بين صاحبي التوكيل " ومن خلالهم يكشف طبيعة الفساد في " أشمونيا " والتفاوت في تفكير الأفراد الأشمونيين ، ثم يتمكن في الفصل الثالث من مقابلة القنصل ونكتشف – نحن الفقراء – المزيد من العفن الاجتماعي والفساد الخلقي ، وفي الفصل الرابع يلتقي رجل الأعمال ب" وليد " بطل الرواية ، ليعرف منه المزيد عن أحوال بلاده ، ويفكر في نقطة الضعف لدى معاون القنصل " رامي المسعودي " ، في الوقت الذي يبدو فيه " روجييه " مثاليا حالما ظلمه في العمل في الوسط التجاري ، وفي الفصل الخامس يصل إلى نقطة الضعف وهي الفتاة " فرانسواز " التي يطمع فيها " رامي " وقد تم ذلك بوساطة وليد الذي وطد العلاقة معه على المستويين الشخصي والأسري ، وهو ما نراه في الفصل السادس حيث يبدو هذا الفصل حشوا لا مسوغ له لانه لم يقدم غير لقاء بينهما في المقهى وتصوير رواده ، أما الفصل السابع فيقدم لنا " فرانسواز " الفتاة التي تمثل نقطة ضعف لمعاون القنصل " رامي " ، ثم تعيينها موظفة بشركة " روجييه " مما يعني نجاح الخطة للإقلاع برامي ، ومن ثم قيامه بحل مشكلة توكيل

الشركة في " أشمونيا " ونتيجة لذلك نجد " روجييه " في الفصل الثامن يستضيف " وليد " في منزله على العشاء ويتعرف بزوجه وولديه ، وهنا نرى صورة " الشرقي " في " الذهن الغربي " لدى الأطفال الغربيين ، حيث يتصور طفل "روجييه " أنّ " وليد " قادم من مغارة علي بابا والبساط السحري ، وهي الفكرة السائدة عن الإسلام والمسلمين عموما ، ويقدم لنا " وليد " في الفصل التاسع صورة لخروجه من منزل " روجييه " ولقائه مع فتاة ألمانية تدعى " إلزا " ، ويعيدنا في الفصل العاشر إلى القنصلية لنرى المفارقات " الأشمونية " حيث يتصرف بعض المواطنين من " أشمونيا " بطريقة " متخلفة " في الوقت ذاته نسمع ونشاهد مظاهرة طلابية يقوم بها المبعوثون الأشمونيون لتحسين أحوالهم وزيادة الاهتمام بهم ، ولكن المسؤولين في القنصلية يعاملونهم بطريقة مخادعة لتفريقهم ، ثم نجد " رامي " و" وليد " يلتقيان مع " فرانسواز " في مكتب " روجييه " تمهيدا لحل المشكلة الخاصة بالوكالة على امتداد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر ، وفي الفصل الثالث عشر نجد " رامي " وقد أصيب بالاكتئاب لعدم تجاوب " فرانسواز " معه ، بيد أن " وليد " يخفف عنه بزيارة المدينة الجامعية في باريس لمشاهدة احتفالات شعبية ، ويشجعه على الاستمرار في علاقته مع " فرانسواز " ، وفي الفصل الرابع عشر صورة لما يحدث في القنصلية من علاقات تتسم بالانتهازية بين موظفيها ، ويكشف الفصل السادس عشر عن طبيعة مشاعر " رامي " وتوجهاته من خلال لقاء له مع " فرانسواز " في المسرح ومشاهدة مسرحية لشكسبير ، ونطالع الحل السعيد لمشكلة الوكالة في الفصل السابع عشر بعد أن نتعرف على الطريقة التي سلكها " جودت باشا " ونزداد علما بأن الفساد متغلغل في المجتمع ويتخذ صورا كثيرة ومتعددة ، وفي الفصل الثامن عشر نرى عملية فضح لسلوك الموظفين في القنصلية ، بعد حل مشكلة "روجييه " مع فصل " وليد " من العمل بسبب موقفه الرافض للفساد ومنهج الموظفين الانتهازيين ، وفي الفصل التاسع عشر يفضي " روجييه " بهمومه إلى " وليد " في ملهى ليلي حيث يستمعان إلى الموسيقى والغناء ويشاهدان الرقص ويشربا الخمور ، ثم يتصعلكا على نهر السين ، وفي خلال ذلك يكشف "روجييه " عن التآمر الغربي ضد البلاد الشرقية أو المستعمرات القديمة عبر العالم ، وفي ختام الرواية وفي فصلها العشرين نرى " روجييه " وقد حقق غايته وإن أعلن غن هزيمته الداخلية بسبب ممارسته عملا ليس مؤهلا له أو راغبا فيه ، ونعلم أن الفساد والفوضى مستمران في " أشمونيا " وأنّ " رامي " فاجأ الموظفين المتنافسين على وظيفة القائم بالأعمال في اسبانيا فاز هو بها ، ولم يبق " لوليد " إلا " إلزا " والصعلكة ، هذا هو بناء الرواية قد يبدو بعضه زائدا عن الحاجة وقد يبدو بعضه الآخر في حاجة إلى مزيد من التعميق لكشف الدوافع والنتائج ، ولكنه بصفة عامة يبدو شائقا مع أن التسلسل الرتيب قد يحدث حالة من الملل في بعض المواضع ، وإذا كانت أدوات البناء الأساسية تتمثل في السرد بضمير الغائب فقد اعتمد السارد في بعض المواضع على المونولوج الداخلي ، والحوار والرسالة والنشرة مستفيدا بقدراته أو قل بشاعريته على الوصف والتصوير .

جمالية المكان وسحر الوصف :

المكان في رواية " منافسة في باريس " يكاد يكون محصورا في مبنى القنصلية وبعض المكاتب والمدينة الجامعية في باريس ، بالطبع لا نعلم شيئا عن المكان في " أشمونيا "

ولا نرى له دلالة مثلما نرى للمكان في باريس ، حيث نرى دار الأوبرا بحجارتها العابسة الحزينة مع أنّ هندستها فنية رفيعة ونقوشها متزنة متسقة ، ونرى القنصلية تشي بالظلال والضيق والغرف الصغيرة والفقر في الأثاث والتكديس في الملفات والأوراق والخزائن والمكاتب ، ونرى المقاهي وما أكثرها في الرواية صغيرة توحي بالضيق ، ونرى الغرف التي يعيش فيها الأبطال خاصة " وليد ، فرانسواز ، إلزا " صغيرة وضيقة أيضا ، حتى المدينة الجامعية تبدو ثكنة عسكرية مع أنّ أبنيتها جميلة وموقعها حسن ، وينطبق ذلك على المسرح والسينما والملهى ، كلها محدودة وشاحبة ومصدر توجس وضغط مع أنها مجال المرح والفرح واللهو، المكان الوحيد الذي أشارت إليه الرواية بتفصيل في " أشمونيا " هو مكتب البريد ، وكان يغص بالناس تمتد عشرات الأيدي متراقصة ملوحة ، والحناجر المصوتة تنبه وتؤنب وتستفز والمستخدم المسكين يبذل المستحيل لإرضاء هذا الأخطبوط أو الخضم البشري المتزاحم، إنّ الرواية تقدم باريس وأحياءها ومقاهيها وشوارعها وغرف الأبطال ومكاتبهم والقنصلية ونهر السين والمتصعلكين على جوانبه ، ولكن شيئا ما يجعل هذه الأماكن تعطي إحساسا بالغربة والازدحام ، وإن شئت فقل الضياع والاختناق ، هل لذلك علاقة بضياع " أشمونيا " تحت وطأة الفساد والفوضى ؟ .

زمان مضطرب وغامض ؟

إذا كان المكان اتضح لنا بأنه خانق وجهم فإن الزمان في روايتنا هذه غائما وغامضا ومضطربا ، سواء الزمان التاريخي أو الزمان الروائي ، فالزمان التاريخي لا تحدده إلا إشارة عابرة تتحدث عن الأوضاع الجديدة الناشئة عن المرحلة الاستثمارية الهوجاء.

وهذه المرحلة غير واضحة تماما ؛ لأنّ أحدا لا يعرف أين تقع " أشمونيا " بالضبط ف" أشمونيا " أضحت رمزا لأي مستعمرة سابقة وصار الزمان تجاهها مبهما وغير واضح ، مما يعني افتراض أنّ هذه الدولة كانت محكومة بنظام شمولي ، بدأ يتخلى عن الاقتصاد الموجه إلى اقتصاد السوق ، فحدث الانقلاب الاقتصادي العشوائي الذي أفرز فسادا عظيما وفوضى بلا حدود ، عبرت عنها صفحات الرواية بأحداثها وشخوصها ، أما الزمان الروائي فهو غير محدد أيضا إنه يبدأ بالبحث

عن حل لمشكلة الوكالة التي تخص شركة النسيج الفرنسية ، وينتهي بالحل وترقية من قام به وتجاوزه لزملائه وفصل الموظف الرافض للفساد ، إنه يستغرق أياما أو أسابيع أو شهورا ربما ، فقد كانت الأحداث تتوالى دون أدنى تحديد بالأيام أو الأسابيع أو الشهور ، فقط رأينا الليل والنهار والصباح والمساء ، وإذا كان الزمان غير محدد على هذا النحو فهو محدد بحل مشكلة الوكالة التي لم تستغرق وقتا طويلا ، لا ريب أن إطلاق الزمان وتجهيل المكان في " أشمونيا " من صالح الموضوع الروائي ، في رواية " منافسة في باريس " حيث يعالج قضية عامة يمكن أن تحدث في أي مكان وأي زمان ، مما ينفي عن الرواية صفة المرحلية أو الوقتية ويجعلها صالحة باستمرار، معظم شخوص الرواية موجودون في كل زمان و كل مكان وهم صالحون أو طالحون بتكويناتهم النفسية ، وطموحاتهم الشخصية ، وأمانيهم الذاتية يمكن ان نراهم هنا وهناك وهذا عنصر آخر يضاف إلى عنصر الزمان والمكان المبهمين ، في جعل رواية " منافسة في باريس " ذات صلاحية ممتدة .

نماذج بشرية :

يمثل " روجييه دبوا " مدير شركة النسيج الفرنسية نموذجا للرجل الغربي الحالم الذي يبحث عن نفسه فلا يجدها في عالم التجارة بدروبه ومنزلقاته وخباياه ، فقد تخصص في دراسة الهندسة الميكانيكية ولكنه أخذ من تخصصه إلى عالم التجارة الذي لا يحبه مدفوعا إلى ذلك بنظرته العملية في خضم الحياة الجارف ، وبرغبته في تأمين الرفاهية لأسرته التي تتكون من زوجة وولدين ؛ الزوجة " مادلين " تشاطره فكره وتحرص عليه وتتفاعل معه والولدين دون العاشرة ، والرجل مثل بقية الغربيين تترسب في ذهنه أفكار معينة عن الشرقيين ؛ أي المسلمين ولكنها تغيرت عندما التقى " بوليد " المنتصر في مبنى القنصلية الأشمونية ، حيث رأى من خلاله صورة مغايرة لمن قابلهم من الشرقيين وارتبط معه بعلاقة ودية إثر تعاونه لحل مشكلة الوكالة فيفضي إليه بهمومه وأمانيه ، يتميز " روجييه " بالذكاء الغربي الذي يستخدمه مع " وليد " لمعاونته في التوصل إلى نقطة الضعف لدى " رامي " وفي الوقت ذاته فو يدرك الفارق بين " وليد " والعميلين المتنافسين على الوكالة في " أشمونيا " " فوليد " يمثل الصورة المشرقة النبيلة التي تكشف الحقائق وتؤيد ما هو صالح وترفض ما هو باطل ، أما العميلان فيمثلان وجها مكفهرا مظلما يطمس الوقائع ويضخمها أو يمسخها تارة أخرى ، يتآمر ضد الشرفاء مسيرا برغبته الهوجاء في البقاء وإذلال المستضعفين مدفوعا بالأنانية الصرفة والاستئثار المر " ، ومن هذا المنطلق أو هذه الرؤية فإنّ " روجييه " يعد عمله في التجارة نوعا من السقوط والنذالة ، و يدفع شركته التي تعمل بالاتفاق مع بعض السياسيين في " أشمونيا " على قتل كل محاولة لبناء معمل وطني ينتج البضاعة نفسها " إنّ خطتنا مجرمة منحطة كنفوسنا " ، ثم يقرر أن يهجر عمله في التجارة غير آسف لأن هذا بالنسبة له يعني الحرية ، أما " وليد " المنتصر فهو شاب يحضر للدكتوراه في باريس ويعمل في قنصلية بلاده " أشمونيا " ليحقق دخلا إضافيا يستطيع أن يواجه به مطالب الحياة ، وهو على وعي شديد بظروف بلاده المختلفة ، ويعلم حقيقة الفئات المتناطحة ، وأصحاب النفوذ وتبين كل عبارة منه أنها صادرة عن نفس عميقة تنهل من آفاق بعيدة الحدود ، وقد أفضى بسر " رامي المسعودي " -معاون القنصل – إلى "روجييه " غير آسف ، لأنه كان يشعر بالازدراء ويراه وأمثاله يستخدمون البشر مطية لأهوائهم ويسخرون بالقيم والمفاهيم لخدمة مصالحهم، و" لوليد" ذوق فني رهيف يتمثل في اهتمامه بالفنون وخاصة الفن التشكيلي ولعل ذوقه وإحساسه بالآخرين وتوهج ضميره جعله يتصدى للفساد والانتهازية في القنصلية " الأشمونية " مما أدى إلى فصله من العمل وكان في أمس الحاجة إليه ، بيد أنّ الرواية تقدمه وقد ذاب إلى حد ما في الواقع الغربي ، فهو يساعد "روجييه " بطريقة تبدو مجافية لروح الوطنية والخلق السوي حين دل "روجييه " على نقطة الضعف لدى معاون القنصل ؛ بمنطق الغاية تبرر الوسيلة ، ومهما كان رأيه في " رامي " وفي فساد القنصلية فإنّ حل المشكلات لا يأتي على حساب الآخرين أو بالمخاتلة " تعيين فرانسواز واستخدامها طعما لرامي " ، ويبدو من سلوك " وليد " أنه يستسلم للسلوك الغربي ومفاهيمه عن الرجل الشرقي ، فهو يشرب الخمر مع روجييه ورامي دون تحرج أو غضاضة ، وكأنه أمر ا عاديا أو مألوفا في بلده " أشمونيا " ويؤكد أيضا الصورة الخيالية المأخوذة عن الشرقيين " أي المسلمين " في الذهن الغربي ، وهي اللهو الفج في ملهى شرقي ويالمفارقة أن يكون اسم الملهى " الجزائر رمز البطولة والمقاومة والشهادة " وفيه يحتسي الخمر مع صديقه " روجييه "، وإذا جاز ط لرامي المسعودي "

معاون القنصل – أن يتشبه بالغربيين في سلوكهم وعلاقاتهم فإن " وليد المنتصر " الذي يمثل الأمل والحلم والرقي العلمي " تحضير الدكتوراه " والوعي الحاد والضمير اليقظ ، يجب أن يكون أقرب إلى روح بلاده وأخلاقها وسلوكياتها " بوصفه مسلما " كي يكتمل " الوجه المشرق " الذي أشار إليه " روجييه " بدلا من رؤية شخصية شرقية في ثوب غربي صرف ، أما " رامي المسعودي " فهو الصورة الحقيقية لفقدان الشخصية الخلقية المنتمية إلى بلادها وقيم الإسلام فهو متسلق أناني يجيد النفاق والتزلف والتذلل ، لا صاحب نفوذ اسمه " جودت باشا " صعد به من أسفل إلى درجة عالية في السلك الدبلوماسي ، وجعله يفوق رؤساء القدامى ويتخطاهم ويصل إلى منصب القائم بالأعمال في اسبانيا وعندما تعرف على " فرانسواز " أفهمها أنه من أصل اسباني من طرف أمه وإيطالي من طرف أبيه - لينفي عن نفسه تهمة الانتماء إلى الشرق ، وسمى نفسه أمامها " فريناندو ، " رامي المسعودي " يهتم بشكله الخارجي ويقف أمام المرآة الحائطية ليعدل من مظهره ويمشط شعره ويشدد من تقويس ربطة عنقه ويصمغ شاربه بلعابه ، ثم إنه عند الضرورة يدعي اهتماما بالفن وولعا بالمسرح وإصغاء للأوبرا ، وهو لا يعنيه أي شيء من ذلك لأنه بعيد عنه بحسه وشعوره فهو رجل مادي لا يفقه الأمور المعنوية ولا علاقة له بالقيم العليا .

لا شك أنّ رواية " منافسة في باريس " عالجت موضوعا مهما وهو نظرة الغرب للآخر المشرقي وكيف كان يعاملنا وما الخلفيات التي على أساسها ظل يرسم تلك المسافة الحضارية ، بين الغرب والشرق وهو موضوع طازج كتب فيه كثير من المبدعين لأنه يعرفنا بحقيقة نظرة الغرب لنا ، فهو يحتاج إلى أكثر من رواية ونص سردي فإذا كانت الرواية قد ركزت على ما يجري في السلك الدبلوماسي " القنصلية تحديدا " فهناك جوانب أخرى كثيرة يستشري فيها الفساد والفوضى لأسباب شتى ومتعددة ، ولا شك أنّ الكاتب بما امتلك من قدرات لغوية وتعبيرية يستطيع أن يكتب روايات جديدة تثير الوجدان وتحرك المشاعر الجياشة ، نستطيع لأن نقول أنّ نهاد رضا قدم صورة الآخر الهامشي عبر لغة تتغلغل في أعماقه ، لتفصح عن صراعاته النفسية أي عن بعده الإنساني فقدمه عبر سياق اجتماعي يقهر أحلامه ويلغي وجوده وإنسانيته ، وبذلك يفضح " الأنا " في تجاوزاتها واستعلائها على الآخر ويعزز اللغة الدرامية في الرواية ، فيكسب احترام المتلقي في إبداع لا يفصل الجمال عن القيم النبيلة .

الإحالات والهوامش :

---

[1]زكي نجيب محمود,في مقترق الطرق ,دار الشروق , القاهرة وبيروت ,ط2, 1993, ص 310

[2]علي حرب , الممنوع والممتنع " نقد الذات المفكرة " , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط 2 , 1999, ص 219

[3]أمين معلوف , الهويات القاتلة . تر , نبيل محسن ,دار مورد , دمشق ,ط 1, 1999, ص 14.

[4]فتحي المسكيني , الهوية والحرية نحو أنوار جديدة , جداول للنشر والتوزيع , بيروت , ط 1 , 2011 , ص 11

[5]فتحي المسكيني , الهوية والحرية , ص 16

[6]جورج قرم , تاريخ اوروبا وبناء أسطورة الغرب , دار الفارابي , بيروت , لبنان , ط1, 2011, ص 56

[7]حميد عبد القادر , أسفار الزمن البهي "مقالات في الأدب والفكر " , منشورات أنيب , الجزائر , ط 1, 2013,ص189

[8]هي رواية للروائي الانجليزي , دانيال دافو, 1661-1731

[9]بول ريكور , الوجود والزمان والسرد , تر, سعيد الغانمي , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط1 , 1999, ص 264

[10]كولن ولسون , اللامنتمي , تر , أنيس زكي حسن , دار الأداب , بيروت , ط3 , 1982, ص 173.

[11]ادوارد سعيد , الثقافة والأمبريالية , تر , كمال أبو ديب , دار الآداب , بيروت , ط2, 1998, ص 391.

[12]علي حرب , العالم ومآزقه , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط1, 2002 , ص 72.

[13]الطاهر لبيب , صورة الآخر العربي ناظر ومنظور إليه , مركز دراسات الوحدة العربية , بيروت , ط1 , 1999, ص 81.

[14]نهاد رضا , منافسة في باريس , مطبعة الحياة , دمشق , 1998, ص 51.